﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنۡهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُۚ إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ٨٨﴾ [هود: 88]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

دَرْءُ السَّيِّئَةِ بِالحَسَنَةِ والاستِعانَةُ بِاللهِ لِتَحقيقِ الأهدافِ الصّالِحَةِ المُصْلِحَةِ هو دَرْبُ الأنبياءِ عليهم السلام

بعدَ أنْ حَكى اللّه تعالى في الآيَةِ السّابقَة إغلاظَهم في القوْل لنَبيِّ اللّه شُعيب عليه السلام، وما تَحملُه كلماتهم من سُخريَة به واستهزاءٍ، حَكى بَعد ذلك الرَّدَّ النَّبويَّ الحكيم على تصريحاتهم وتلْميحاتهم، وهو رَدٌّ مُسَجَّى بالتَّغاضي عن إساءاتِهم نَحْوه، وتَجاهل سفاهتهم في حقِّه، ورَدِّ السَّيِّئ من القوْل بالحَسَن منه، فناداهم مُسْتعطِفًا بـ ﴿يَٰقَوۡمِ﴾ ثُمّ حاكَمَهم بَعد هذا الاسْتعطاف إلى عُقولِهم وضمائرهم، إنْ كان فيها ما قد بَقيَ ليَفْقهوا كلامَهُ، وليَعلموا غايَتَه من الخَوف عَليهم، ومرادَه من الدّعْوة إلى ما يَنْفعهم ويُصْلِحُهم، مؤَكِّدًا لهُم أنّ غايته الإصلاحُ، وأنّه مُسْتَمدٌّ تَوْفيقه من اللّه في سبيل تَحْقيقِها، فقال سبحانه حِكايَة عنه عليه السلام: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ﴾ الآية.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَرَءَيۡتُمۡ﴾: أصْلُ (رأى): يَدُلُّ عَلى نَظَرٍ وإبْصارٍ بِعَيْنٍ أوْ بَصيرَةٍ. فالرَّأْيُ: ما يَراهُ الإنسانُ في الأمْرِ، وجَمْعُهُ الآراءُ[1]. والرُّؤْيَةُ: إدْراكُ المَرْئِيِّ، وذلك أضْرُبٌ بِحَسبِ قوى النَّفْسِ؛ فالأوَّلُ: بالحاسَّةِ وما يَجْري مَجْراها، نَحْو: ﴿لَتَرَوُنَّ ٱلۡجَحِيمَ ٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيۡنَ ٱلۡيَقِينِ ٧﴾ [التكاثر: 6 - 7]. والثّاني: بالوهْم والتَّخيُّل، نَحْو قوله: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (رأى).

﴿يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [الأنفال: 50]. والثّالث: بالتّفكُّر، نَحْو: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوۡنَ﴾ [الأنفال: 48]. والرّابع: بالعَقْلِ، وعلى ذلك قوله: ﴿مَا كَذَبَ ٱلۡفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ١١﴾ [النجم: 11]. والرَّأْيُ: اعْتِقادُ النَّفْسِ أحَدَ النَّقيضَيْن عن غَلَبَةِ الظَّنِّ، وعلى هذا قوله: ﴿يَرَوۡنَهُم مِّثۡلَيۡهِمۡ رَأۡيَ ٱلۡعَيۡنِۚ﴾ [آل عمران: 13]، والرُّؤْيا: ما يُرى في المَنام[1]. والرُّؤيَة قِسْمان: بَصَريَّة وعِلْميَّة، والرُّؤْيَةُ البَصَريّة بالعَيْنِ تَتَعَدّى إلى مَفْعولٍ واحِدٍ، وبِمَعنى العِلْم تَتَعَدّى إلى مَفْعولَيْن. والرُّؤْيَةُ في الآيَةِ بِمَعْنى الاعْتِقادِ، آيِلًا الاسْتِفهامُ بها ﴿أَرَءَيۡتُمۡ﴾ إلى مَعْنى: أخْبِروني[2].

2) ﴿بَيِّنَةٍ﴾: أصْلُ الكَلِمةِ من البَيْنِ، وهو بُعْدُ الشَّيءِ وانْكِشافُهُ، فالبَيْنُ الفِراقُ؛ يُقالُ بانَ يَبينُ بَيْنًا وبَيْنونَةً. والبَيونُ البِئْرُ البَعيدَةُ القَعْرِ[3]. والبَيِّنَةُ: الأمْرُ الواضِحُ، ومنهُ قوله: ﴿إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾ [الأنعام: 57]، أي: أنا على أمْرٍ واضحٍ ظاهرٍ. والبَيِّنة: الحُجَّة، ومنهُ: «البَيِّنةُ على المدَّعي»؛ لأنَّ بها يَنْكَشِف الحقُّ ويتَّضِحُ. والبَيِّنةُ: الدّلالة الواضِحةُ عَقْليَّةً كانت أو حِسّيَّةً[4]. والبَيان: التَّوْضيحُ والكَشْفُ، يُقالُ: بانَ الشَّيْءُ وأبانَ إذا اتَّضَحَ وانْكَشَفَ، وفُلانٌ أبْيَنُ منْ فُلانٍ؛ أيْ أوْضَحُ كَلامًا منْهُ[5]. والمَقْصودُ بالبَيِّنة في الآيَة: الحُجَّة الواضِحَةُ[6].

3) ﴿وَرَزَقَنِي﴾: أصْلُ (رزق): يَدُلُّ على عَطاءٍ لِوقْتٍ، ثُمَّ يُحْمَلُ عَليْهِ غَيْرُ المَوْقوتِ. فالرِّزْقُ: عَطاءُ اللهِ جَلَّ ثَناؤُهُ. ويُقالُ رَزَقَهُ اللهُ رِزْقًا، والاسْمُ الرِّزْقُ[7]. والرّازِقُ يُقال لِخالِقِ الرِّزق، ومُعطيه، والمسبِّبِ لَه، وهو الله تعالى، ويُقالُ ذلك للإنْسانِ الَّذي يَصيرُ سَببًا في وصول الرِّزْقِ[8]. أيْ بِطَريق المَجاز. والرِّزْقُ أيضًا: كُلُّ ما يُنْتَفَعُ بِهِ منْ مالٍ ونَحْوِهِ، والجَمْعُ: أرْزاقٌ[9]، والرَّزْقُ بِفَتْحِ الرّاءِ: ما رَزَقَه إيّاه، والجَمْعُ أرْزاق[10]، يُقالُ: رَزَقَ يَرْزُقُ

(1) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفّاظ، والزّبيديّ، تاج العروس: (رأى).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/51.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بين).
(4) السّمين الحلبي، عمدة الحفّاظ: (بين).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بين).
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/51.
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (رزق).
(8) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفّاظ: (رزق).
(9) الجوهريّ، الصّحاح: (رزق).
(10) ابن منظور، لسان العرب: (رزق).

رِزْقًا، أيْ: أعْطَى ووهَبَ، وكُلُّ ما يَصِلُ إلى الجَوْفِ ويُتَغَذّى بِهِ فَهُو رِزْقٌ[1]. والمُرادُ بـ (الرِّزْقِ الحَسَنِ) في الآيَة: نِعْمَة النُّبوَّةِ[2] وفي قوْل أكثَرِ المُفسّرين: الرِّزْق الحَلال[3].

4) ﴿أُخَالِفَكُمْ﴾: أصْلُ (خلف) منَ الإخْلافِ، هو: مَجِيءُ شَيْءٍ بَعْدَ شَيْءٍ يَقومُ مَقامَهُ[4]، فالخَلَفُ: المُتأخِّرُ، سَواء كان تَأخُّرُه في الزَّمَنِ، أو في الرُّتبَةِ[5]. وضِدُّ الخَلَفِ: السَّلَفُ، وهو: كُلُّ مَن سَبَقَكَ. والخَلَفُ أيضًا: ما اسْتَخْلَفْتَهُ من شَيْءٍ، وجمعُه: أخْلافٌ[6]. وأمّا قَوْلُهُمُ: اخْتَلَفَ النّاسُ في كَذا، والنّاسُ خِلْفَةٌ أيْ مُخْتَلِفُونَ، فَمنَ هذا البابِ؛ لأنَّ كُلَّ واحِدٍ منْهُمْ يُنَحّي قَوْلَ صاحِبِهِ، ويُقيمُ نَفْسَهُ مقامَ الَّذي نَحّاهُ[7]. والمقْصودُ بالمُخالفَة في الآيَة: مُخالَفةٌ تَدُلُّ على الاتِّصافِ بِضِدِّ حالِهِ، يُقالُ: خالَفَني فُلانٌ إلى كذا إذا قَصَدَهُ وأنتَ مُولٍّ عنه. والمَعنى: أنْ أفْعَلَ خِلافَ الأفْعالِ الَّتي نَهَيْتُكُم عنها بِأنْ أصْرِفَكُم عنها وأنا أصيرُ إليها[8].

5) ﴿أَنْهَاكُمْ﴾: أصْلُ (نهي): يَدُلُّ على غايةٍ وبُلوغٍ. ومنه أنهَيتُ إليه الخَبَرَ: بَلَّغْتُهُ إيّاهُ. ونِهايَةُ كُلِّ شَيءٍ: غايَتُهُ. ومنه نَهَيْتُهُ عنه، وذلكَ لِأمْرٍ يَفعَلُهُ. فإذا نَهَيْتُهُ فانتَهى عنكَ فَتِلكَ غايَةُ ما كانَ وآخِرُهُ[9]. والإنْهاءُ: الإيصالُ والإبلاغُ[10]، والنِّهايَة: غايَةُ كُلِّ شَيءٍ وآخِرُهُ[11]، والانْتِهاءُ: الاكْتِفاءُ والامْتِناعُ، يُقالُ: نَهِيَ فُلانٌ منَ اللَّحْم إذا اكْتَفى منه[12]. والنَّهْي: الكَفُّ عَنِ الشَّيءِ والمَنْعُ منه، تَقولُ: نَهاهُ إذا كَفَّهُ ومَنَعَهُ عَنْ شَيءٍ ما، ومنه النُّهْيَةُ وهي العَقْلُ؛ لأنَّهُ يَمْنَعُ صاحِبَهُ منَ القَبيحِ[13]. والمَقْصود بالنَّهي في الآيَة: طَلَبُ تَرْكِ الفِعْلِ بالقَوْلِ على وجْهِ الاسْتِعْلاءِ، أيْ ممّن هو أعْلى وأحَقّ بتَوْجيه الطَّلَب.

(1) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 1/81.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/143.
(3) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/145، وأبو حيّان، البحر المحيط: 6/198، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 18/388، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 9/358، والآلوسيّ، روح المعاني: 6/314.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خلف).
(5) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (خلف).
(6) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (خلف).
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خلف).
(8) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/143 - 144.
(9) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نهي).
(10) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة: (نهي).
(11) ابن عبّاد، المحيط في اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (نهي).
(12) ابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (نهي).
(13) ابن عبّاد، المحيط في اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (نهي).

6) ﴿ٱلۡإِصۡلَٰحَ﴾: أصْلُ (صلح): يَدُلُّ على خِلافِ الفَسادِ. يُقالُ: صَلُحَ الشَّيْءُ يَصْلُحُ صَلاحًا[1]، ورجل صالِحٌ في نَفْسِهِ ومُصلِحٌ في أعمالِهِ وأمورِهِ[2]. والصُّلْحُ: تَصالُحُ القَوْمِ بَينَهُم. وأصلَحْتُ إلى الدّابَّة: أحْسَنْتُ إليها[3]. والإصْلاحُ جَعْلُ الشَّيْءِ صالِحًا، أي ذا صَلاحٍ، والصَّلاحُ ضِدُّ الفَسادِ يُقالُ: أصْلَحَهُ، أيْ: جَعَلَهُ صالِحًا، وأصْلَحَ الشّيءَ بَعْدَ فَسادِهِ: أقامه[4]. والصَّلاحُ أيضًا: اسْتِقامَةُ الأعْمالِ وطَهارَةُ النَّفْسِ، قالَ إبراهيمُ: ﴿رَبِّ هَبۡ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١٠٠﴾ [الصّافات: 100]. والمَقْصود بالإصْلاحِ في الآيَة: تَغْيير حالِ الشَّيءِ إلى الاسْتِقامَةِ.

7) ﴿ٱسۡتَطَعۡتُۚ﴾: أصْلُ (طوع): يَدُلُّ على الإصْحابِ والانْقِيادِ. يُقالُ: طاعَهُ يَطوعُهُ، إذا انْقادَ معهُ ومَضى لأمْرِهِ. وأطاعَهُ بمعْنَى طاعَ له. ويُقالُ لِمَنْ وافَقَ غَيْرَهُ: قَدْ طاوعَهُ[5]. والاستِطاعَةُ: القُدْرَةُ على الشَّيءِ[6]، وضِدُّها العَجْزُ، تَقُولُ: اسْتَطاعَ القِيامَ إذا قَدِرَ عليه، فهو مُسْتَطيعٌ، وتَأْتي الاسْتِطاعَةُ بمعْنَى: الإمكانِ، كقَولِكَ: في اسْتِطاعَتِهِ كَذا، أي: في إمكانِهِ[7]. والمرادُ منَ الاسْتِطاعَةِ في الآيَةِ: القُدْرَةُ، والألفُ والسِّينُ والتّاءُ فيها للمُبالَغَةِ في طاعَ.

8) ﴿تَوۡفِيقِيٓ﴾: أصْلُ (وفق): كَلِمَةٌ تَدُلُّ على مُلاءَمَةِ الشَّيْئَيْنِ. منه الوفْقُ: المُوافَقَةُ. واتَّفَقَ الشَّيْئانِ: تَقارَبا وتَلاءَما، ووافَقْتُ فُلانًا: صادَقْتُهُ، كأنَّهُما اجْتَمَعا مُتَوافِقَيْنِ[8]. والاتِّفاقُ: مُطابَقَةُ فِعْلِ الإنسان القَدَرَ، ويُقالُ ذلكَ في الخَيْرِ والشَّرِّ، يُقالُ: اتَّفَقَ لفلان خَيرٌ، واتَّفَقَ له شَرٌّ. والتَّوْفيقُ نَحْوه؛ لكنَّه يَختصُّ في التَّعارف بالخَير دُون الشَّرِّ[9]. والمَقْصود بالتَّوفيقِ في الآيَة: جَعْلُ الشَّيءِ وفْقًا لِآخَرَ، أي: طِبْقًا لَهُ[10].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (صلح).
(2) الخليل، العين، وابن منظور، لسان العرب: (صلح).
(3) الخليل، العين: (صلح).
(4) ابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (صلح).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (طوع).
(6) ابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (طوع).
(7) السّمين الحلبي، عمدة الحفّاظ: (طوع).
(8) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (وفق).
(9) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفّاظ: (وفق).
(10) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/146.

9) ﴿أُنِيبُ﴾: أصلُ (نوب): تَدُلُّ على اعْتِيادِ مَكانٍ ورُجوعٍ إلَيْه[1]. نابَ نَوْبًا ونَوْبَة، وسمّيَ النّحل نَوّبًا لِرُجوعِها إلى مَقارِّها، ونابَتْهُ نائِبَة. أيْ: حادِثَة من شَأْنِها أنْ تَنوب دائبًا، والإنابَةُ إلى اللّه تعالى: الرُّجوع إلَيْه بالتَّوْبة وإخْلاصُ العَمل. قال تعالى: ﴿وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ ﴿٢٤﴾﴾ [ص: 24][2]، وفلانٌ يَنْتاب فلانًا. أي: يَقْصده مرّةً بَعد أُخْرى. والمُنيبُ مَنْ أنابَ إذا رَجَعَ[3]، والمَقْصود بالإنابَةِ في الآيَة: الرُّجوعُ إلى اللّهِ والتَّوْبةُ إلَيْه.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

قال شُعَيبٌ ﷺ: يا قوْم أخبِروني إن كنتُ على يقينٍ وعِلْمٍ من اللّه فيما أمَرَني أنْ أدعوكم إليه من تَوْحيدِه، وفيما أنْهاكُم عنه من ظُلم النّاس، وأعطاني اللّهُ من فَضلِه مالًا حلالًا طيِّبًا، أفَأتَّبِعُ الضَّلالَ، وأضِلُّ كما ضَلَلْتُم؟ وما أريدُ أنْ أخالِفَكم فأرتكِبَ أمرًا نهيتُكم عنه، وما أريدُ فيما آمُرُكم به وأنهاكم عنه إلّا إصلاحَكم قَدْرَ طاقَتي واستطاعَتي، وما توفيقي - في إصابةِ الحَقِّ، ومحاولةِ إصلاحِكم - إلّا باللّهِ، على اللّهِ اعتمَدتُ، وفوَّضتُ إليه جميعَ أُموري، وإليه وحْدَه أرجِعُ بالتَّوبةِ والطّاعةِ والدُّعاءِ[4].

ثَباتُ الأنْبياءِ عَلى المَبْدَأ وثِقَتُهُمْ بِالله وتَفْويضُ أُمورِهِمْ إلَيْهِ ظاهِرةٌ سَتَبْقى ماثِلَةً أمامَ الأعْيُنِ في كُلِّ جيلٍ

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالَةُ الفَصْلِ:

لمّا بالَغوا في السّفاهة والحُمْق معه ﷺ، كأنّ سائلًا سأل: وماذا قال لهم شُعيب بعدَ ذلك، فجاء الجَوابُ: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن

شِبْهُ كَمالِ الاتِّصالِ في الجُمْلَةِ المَفْصولَةِ عَمّا قَبْلَها

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نوب).
(2) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفّاظ: (نوب).
(3) ابن عبّاد، المحيط في اللّغة: (نوب).
(4) ابن جرير، جامع البيان: 12/549، والواحديّ، التّفسير الوجيز، ص: 530، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/201، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/344، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 387.

﴿كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾ وهذا الأسلوب يَكْثُر في القرآن الكريم في المحاورات، فلا تأتي معطوفةً على بعضها بأحد حُروفِ العَطْف في الغالب، وإنّما يكون سَبَب فَصلِها أنّها إجابةٌ عن سؤالٍ مُقدَّر: فماذا ردَّ عليه بَعد ذلك؟

دلالَةُ تَكْرارِ النِّداءِ بـ: ﴿يَٰقَوْمِ﴾:

من رَحْمَةِ الأنْبياءِ الإشْفاقُ حتّى عَلى مَنْ يُؤْذونَهُمْ

في تَكرار النِّداء من قِبَلِه ﷺ بـ ﴿يَٰقَوْمِ﴾ - حال مخاطبتهم - دلالةٌ على حِرْصه وإشْفاقِه عليهم حَدَّ الاسْتعطاف، عَلَّهُم أنْ يَسْتجيبوا لِنِدائه.

دلالَةُ الاسْتِفْهام في: ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾:

تقرير المعارضين بالحقّ

الاستفهام في قوله: ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾ لِلتّقرير وإثارَةِ الانْتباه الشّديد[1]، فهو يُخاطب عُقولهم - إنْ كان لديهم أثارَة منها - لِيُقرِّرَهم بنتيجة ما يسْتَفْهم عنه ظاهرًا، وهو مَعلوم الجوابِ.

سِرُّ التَّعْبيرِ بِالرُّؤْيَةِ في: ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾:

اسْتِحْضارُ صورَةِ المُسْتَفْهَمِ عَنْهُ في الذِّهْنِ لِتَأْكيدِ المَعْنى المُقَرَّرِ وتَمْكينِهِ

الرّؤية هُنا هي العِلْمية، أيْ بمَعنى أعْلِموني أوْ أخْبروني. وهو لا يُسْتَعمل إلا في طلب مَن حالُه حالُ مَن يَجْحَد الخبَرَ[2] وغرض هذا التّركيب الاستفهاميِّ، استحضار صورة المُسْتفهَم عنه في الذّهن، لِيَجريَ الحديث عنها وهي حاضرة، كَي يَتَمكّن المَعنى المراد في النّفْس[3].

بَلاغَةُ المَجازِ المُرْسَلِ في: ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾:

الرُّؤْيَةُ بِمَعْنى الإخْبارِ

استعمال الرّؤية بمَعنى الإخبار مَجاز، فيَكون المَعنى أخْبروني، والعلاقة ما بَيْن العِلْم، والإخبار من السّببيَّة والمسبّبيَّة واللّازميَّة والمَلْزوميَّة، واستعمال الهمزة الّتي هي لطلب الإخبار مَجازٌ[4].

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3741.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/51.
(3) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 2/118.
(4) محمد عفيف، الشّامل في بلاغة القرآن: 2/60.

ففي هذا التّعبير مَجازٌ مُركَّب؛ حيْث عبّرَ عن العِلْم بِسَببه وهي الرّؤية؛ لأنّ الرُّؤيَة هي أقوى وسيلة في تحصيل العِلْم، ثمّ طلب الإخبار والإعلام عن هذه الرّؤية المُتيقَّنة من خِلال لازمها، على مَعنى: أحَصَلَ لديْكم العِلْم اليَقينيُّ بما رَأيْتم؟ فأخْبروني عِلْمًا يَقينيًّا بما تَحَصَّل لديكم.

دلالَةُ التَّعْبيرِ بـ ﴿إن﴾:

يدلّ التّعبير بـ ﴿إن﴾ الّتي تُفيد الشَّكّ في قوله تعالى: ﴿إن كُنتُ﴾ مع أنّه على يَقين من ذلك، على قَصْدِه ﷺ من إرخاء العِنان لَهُم، وتَلْيين الخِطاب معهم لاسْتِمالَتِهم[1]. فالأصْل استعمال (إذا) الدّالّة على التّحقُّق، ولكنّه خَرَج عن الظّاهر دون مُقْتضى الحالِ فعبّرَ بـ (إنْ) المفيدة لِلتّشْكيك من باب مُجاراة الخَصْم وإرخاء العِنان له.

مِنَ المَنْهَجِ الدَّعَويِّ إرْخاءُ العِنانِ لِلْمَدْعوِّ المُعانِدِ، وتَلْيينُ الخِطابِ مَعَهُ رَجاءَ اسْتِمالَتِهِ

بَلاغَةُ عَرْضِ مُراجَعَةِ شُعَيْبٍ لِقَوْمِهِ في أمْرِ الدَّعْوةِ:

إنّ ما سَلَكه ﷺ من التّعبير بـ ﴿إن﴾ الّتي تُفيد الشّكّ قائلًا، كما حَكى سبحانه: ﴿إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾ لَهو من الأساليب الدّعَويَّة والحِجاجيَّة أيضًا، فهو يُرخي لهم العِنان، ويُلين لهم الخِطاب، ويَمدُّ لهم الحَبْل لِيَجرَّهم جرًّا إلى التّأمّل في حاله، اعتمادًا على ثِقته في عِلْمهم بكَريم خِصاله. ويُعرف هذا الأسلوبُ بـ (المُنْصِف من الكلام) أو (الاسْتِدْراج)[2].

مِنَ الأساليبِ الدَّعَويَّةِ والحِجاجيَّةِ ما يُعْرَفُ بـ (المُنْصِف من الكلام) أو (الاسْتِدْراج)

دلالَةُ تاءِ الإخْبارِ في: ﴿كُنتُ﴾ في أمْرِ الدَّعْوةِ:

الدّاعي هُنا يُنَزّل نَفْسَه مَنْزلةَ المُحاكَم ﴿يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ﴾ ويدعو المُخاطَب إلى النّظر في حاله، وكأنّه مُتَّهم ومَطلوبٌ منْه أنْ يُحاكِمَه، وذلك لِيَستدرجَه إلى النّظر، فقد يَصِل المخاطَبُ من حيْث لا يَقْصِد إلى حقيقة الأمْر.

في سَيْرورَةِ الدَّعْوةِ قَدْ يَحْتاجُ الدّاعي إلى إنْزالِ نَفْسِهِ مَنْزِلَةَ المُحاكَم

(1) الطّيبيّ، حاشية على الكشّاف: 8/169، والمطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 2/118.
(2) الخطيب، مفاتيح التّفسير: 1/111.

وقد تَكرَّر هذا في السّورَة نفسِها مع نَبيَّي اللّه: (نوح، وصالح) عليهما السلام، في قوله تعالى حكايةً عن نوح عليه السلام: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتۡ عَلَيۡكُمۡ أَنُلۡزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمۡ لَهَا كَٰرِهُونَ ٢٨﴾ [هود: 28] وقوله حكاية عن صالح عليه السلام: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي مِنۡهُ رَحۡمَةٗ فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِنۡ عَصَيۡتُهُۥۖ﴾ [هود: 63].

ويُشبه هذا التّعبير في الهدف والمَقْصد قوله تعالى: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ إِنِ ٱفۡتَرَيۡتُهُۥ فَعَلَيَّ إِجۡرَامِي وَأَنَا۠ بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُجۡرِمُونَ ٣٥﴾ [هود: 35] وقولهُ: ﴿۞قُلۡ مَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ قُلِ ٱللَّهُۖ وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ٢٤ قُل لَّا تُسۡـَٔلُونَ عَمَّآ أَجۡرَمۡنَا وَلَا نُسۡـَٔلُ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ٢٥﴾ [سبأ: 24 - 25].

بَلاغَةُ الاسْتِعارَةِ في: ﴿عَلَىٰ بَيِّنَةٖ﴾:

إيثارُ (على) الاستِعلائيَّةِ لِلدّلالَةِ على قوّةِ حُجَّتِهِ وظُهورِ حالِهِ

في اختيار ﴿عَلَىٰ﴾ دون غيْرِها في قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ بَيِّنَةٖ﴾: دلالةٌ على أنّه في قوّة بُرهانه وظهور حالِه من الصِّدق في الإخبار عن اللّه، لَهو أعلى في ذلك من البَيِّنة نفْسِها. وعليه تَكون هُنا (اسْتعارَة تَبَعيَّة) في الحَرْف ﴿عَلَىٰ﴾ كما هي كذلك في قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ﴾ [البقرة: 5]؛ إذ الأصْل: في هُدى.

وجْهُ اخْتيارِ ﴿بَيِّنَةٖ﴾:

أكْثَرُ مَوارِدِ (البيّنة) مُرادٌ فيهِ الحُجَّةُ الواضِحَةُ

البيّنة هي الدّلالة الواضِحة الظّاهرة، الّتي لا تَحتاج لِشدَّة وُضوحها إلى إجالَةِ نَظَر، بخِلاف الحجَّة فإنّها لا تُعْتبر كذلك إلّا بَعد النَّظر[1] أمّا قبل ذلك، فلا. وأمّا الآيَةُ، فهي تُطلَق في القرآن على المُعجزة، والمُعْجزة قاطِعَةٌ في دلالة الصِّدق، فهي أعلى مُستوى في الدّلالة منَ البيّنة. والّذي يَظهرُ أنّه عليه السلام لَم يُحاكِمْهم هُنا إلى

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 69.

المُعْجزة، وإنّما حاكَمَهم إلى مَعْرفتهم به وبأخلاقِه وبسيرَتِه الحَسَنة، وأنّه ليس من أصْحاب الهَوى، ولا بالّذي يَبيع قوْمَهُ لِغَرض رَخيص، تَأْسيسًا على وصْفهم إيّاه بأنّه ﴿ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾ ومن ثَمّ يَكون التّعبير بالبيّنة أدَقَّ وأنْسَب، ولَو حاكَمَهم إلى المُعجزة لكان التّعبير بالآيَة أنْسَبَ[1].

دلالَةُ التَّنْكيرِ في: ﴿بَيِّنَةٍ﴾:

التَّنْكير لِلتَّفْخيم

التّنكير في ﴿بَيِّنَةٍ﴾ لِتَفخيم أمْرِها في الوضوح والظّهور، على مَعنى أنّها فيهما بحيْث لا يُمْكِن وصْفها ولا تَعْريفُها.

نُكْتَةُ التَّعْبيرِ بِالمُفْرَدِ ﴿بَيِّنَةٍ﴾:

بَـيِّـنَـةٌ واحِـدَةٌ صادِقَةٌ تَكْفي في إقامَةِ الحُجَّةِ

التّعبير بالمُفرَد ﴿بَيِّنَةٍ﴾ للدّلالة على أنّ بيّنة واحدة من ربِّه كافية في إظهار صِدْقه والتّدْليل عليه، أو أنّ المرادَ به جِنْسُ البيّنات، كما في قولِه تعالى: ﴿ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ [الحج: 5].

دلالَةُ تَقْييدِ البَيِّنَةِ: ﴿مِّن رَّبِّي﴾:

القَصْدُ مِنَ الرِّسالَةِ البَيِّنَةُ

تقييد البيّنة بكَوْنها: ﴿مِّن رَّبِّي﴾؛ لأنه يُريد الرِّسالة في الأصْل، ولَو أنّه قد حاكَمَهم أوّلًا من باب التَّنَزُّل إلى ما يَعْرفونه من أخْلاقِه ﷺ، الّتي عبَّروا عنها بأنّه ﴿ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾ لِيَسْتدرجَهم إلى ما بعدَه.

سِرُّ التَّعْبيرِ بِالرُّبوبيَّةِ:

في مَقام الإنْعام والامْتِنانِ يُؤْثَرُ التَّعْبيرُ بِالرُّبوبيَّةِ

عُبّرَ بالرّبوبيَّة في قوله تعالى: ﴿مِّن رَّبِّي﴾ دون الأُلوهيَّة (من الله) لأنَّ المَقام مَقامُ إنعام وامْتنان؛ فإرسال الرُّسل من البَشر، هو نِعمة من الله على خَلْقه تَسْتحقُّ الشُّكر، وقد عبِّرَ عنها بذلك في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [آل عمران: 164].

(1) قال ابن عاشور في التّحرير والتّنوير: 9/40: "إنّ أكثر موارد (الآية) في القرآن مراد فيه المعجزة، وأكثر موارد (البيّنة) مراد فيه الحجّة"، أي الواضحة الظّاهرة.

دلالَةُ الإضافَةِ في: ﴿مِّن رَّبِّي﴾:

الإضافَةُ اعْتِزازٌ واعْتِرافٌ بِفَضْلِ اللهِ عَلَيْهِ

الإضافة في قوله تعالى: ﴿مِّن رَّبِّي﴾ هي إضافة تَشْريفٍ واعْتِزاز وإبْرازٍ لِنِعمة الله عليه، وهي النّعمة الّتي لَم يُدْرِكْها قوْمه، ولَم يَعتَرفوا بها، ولِذا لَم يَقُل: (من ربّكم).

دلالَةُ الواوِ في: ﴿وَرَزَقَنِي﴾:

﴿وَرَزَقَنِي﴾ في قوله تعالى: ﴿وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾ الواو هُنا عاطِفَة، لِلجَمْع بيْن نِعْمتَين قد أنْعَم الله بهما عليه، وهما الرِّسالة المَدْلولُ عليها بقَوْله: ﴿بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾، والرِّزْق الحَلال المُبارَك المَدْلولُ عليه بقوْله: ﴿وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾. وفي ذلك مَزيدُ فَضْلٍ وإحْسان.

دلالَةُ الرِّزْقِ في: ﴿رِزْقًا حَسَنًا﴾:

تَحْقيقُ القَوْلِ في المُرادِ بِالرِّزْقِ الحَسَنِ

فُسِّرَ الرِّزْق الحَسَنُ بالنُّبوَّة، في قوله سبحانه ﴿وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾، ووجْه كَوْنها رِزقًا حسَنًا، أنّ النّجاة في الآخِرَة مُتوقِّفة على مُتابعتها، فهي مَناطُ الحياة الأبَديَّة[1] وعندئذٍ يَكون التّعبير عن النُّبوَّة بالرِّزْق من قَبيل المُشاكَلَة لِقوْلهم: ﴿أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاؤُا﴾[2].

والأظْهر أنَ المُرادَ بالرِّزْق الحَسَن: الرِّزْق الحَلال الطّيّبُ، وهو قَول أكثَرِ المُفسّرين[3] وما يُرجِّحُه فَضلًا عن ذلك أُمورٌ:

منها: أنّ تفسيره بالنّبوَّة لا يُضيف جديدًا؛ لأنّ النّبوَّة مدلولٌ عليها بكلمة ﴿بَيِّنَةٍ﴾، أمّا تفسيره بالرِّزق الحسَن فهو تأسيس، فلَه على هذا حقّ التّقديم.

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/233.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/143.
(3) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/145، وأبو حيّان، البحر المحيط: 6/198، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 18/388، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 9/358، والآلوسيّ، روح المعاني: 6/314.

ومنها: أنّه القوْل الأنْسَب لِلمَقام والأوْفَق لِلسّياق، لِيَكون حجّة في مواجهة كَسْبِهم الخبيثِ الّذي جَمَعوه من ظُلْم النّاس والتّطْفيف في الكَيل والوزن، وفيه دَعْوة لهم لِيوازِنوا بيْن بَرَكة الحَلال ومَحْقِ الحَرام.

ومنها: أنّ الكلام عندَئذٍ يَكون مَحمولًا على حقيقته، لا على مَجازه، والحمْل على الحقيقة أوْلى ما لَم يَتعذّر الحمْل عليها، وهو هُنا غيْرُ مُتَعذّر، بل أنْسب لِلمَقام وأوْفق للسّياق.

دلالَةُ تعبير شعيب بقوله: ﴿وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾:

لَوْ كانوا راشِدينَ لَعَلِموا صِدْق دَعْوةِ نَبيِّهِمْ إيّاهم إلى الخَيْرِ

في قوله: ﴿وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾ دلالةٌ على أنّه ﷺ كان غنيًّا كثيرَ المال[1] وأنّه كان مُبارَكا له فيه، الأمْرُ الّذي جعَلَه يَسْتدرِجهم لِلنّظر في حال الغِنى مع البَرَكة، لِيَتَحقّقوا من أنّ وصْفهم إيّاه بـ ﴿ٱلرَّشِيدُ﴾ هو في مَحلّه، ولِيَعلَموا أنّه ما دعاهم إلّا إلى خيْر مَدلول عليه بحالِه الّتي يَعيشها من الغِنى بالحَلالِ الطّيّب المُبارَك.

سِرُّ التّعْبيرِ بِالفِعْلِ الماضي ﴿وَرَزَقَنِي﴾:

الــرِّزْقُ فَـضْـلٌ مُتَحَقّقٌ عايَنوهُ

عبّر بالفعل الماضي لِتَحقُّق وُقوعِ الرّزق الحسَن الحلالِ الطّيّب، ولا شكّ أنّهم قد عايّنوه، وشاهدوا أثَرَهُ على شُعيب ﷺ.

دلالَةُ ياءِ المُتَكَلِّم في ﴿وَرَزَقَنِي﴾:

إسْنادُ النِّعْمَةِ إلى المُنْعِم اعْتِرافٌ وشُكْرٌ

تدُلّ ياء التّكلُّم الّتي هي مفعول (رزق) على إسنادِه أمْرَ الرّزق إلى ربّه، لا إلى ذكائه ولا مهارَته، ولا غَرْو فهو نَبيٌّ مُرْسَلٌ يَعرف كَيف يَؤولُ بِالنِّعم إلى المُنعِم، وليس كما قال قارونُ اغْترارًا بما مَنَّ اللّه به عليه من الكنوز الكَثيرِ والكَثير، قال: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ [القصص: 78].

بَيانُ المُتشابِهِ اللَّفْظيّ:

بَيْن قوْله تعالى على لسان شُعيب ﷺ: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 18/388، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 9/358.

عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾ وبَيْن قوْله تعالى على لسان صالح عليه السلام ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ ۖ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾﴾ [هود: 63] الآية، وبَيْن قوْله تعالى على لسان نوح عليه السلام ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [هود: 28].

دلالَةُ التَّقْديم والتَّأْخيرِ والاخْتِلافِ والاتِّفاقِ في هذا المَشْهَدِ:

أوَّلًا: الاتِّفاقُ في المَواضِعِ الثَّلاثَةِ ودلالَتُهُ.

اتَّفَقَت المواضع الثّلاثة في اسْتِهْلالها بنَفْس جُملة الشّرْط بَعد فِعل القوْل ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾؛ وهذا دليل على صِدق هؤلاء الأنبياء جميعًا، وأنّهم على تباعُدِ أزمانهم وأوْطانهم، هم جميعًا مُتَّفِقون في منهج الدّعْوة، القائم على الحجّة والبَيّنة.

ثانيًا: الاخْتِلافُ في المَواضِعِ الثَّلاثَةِ ودلالَتُهُ.

أ – الاختلاف في التّعبير بِكَلمة ﴿وَرَزَقَنِي﴾ في كلام شُعيب عليه السلام، و﴿وَءَاتَىٰنِي﴾ في كلام نوح وصالِح عليهما السلام. وتَوْجيه ذلك: أنّ قوْل شُعيب عليه السلام ﴿وَرَزَقَنِي﴾ قد وقع مَحْصورًا بَيْن سابق ولاحِق جَعَلا من المُناسِب التّعبيرَ به دون التّعبير بـ ﴿وَءَاتَىٰنِي﴾ [هود: 28، 63] وذلك أنّه قد تقدَّمه ذِكرُ الأموال، وتأخَّر عنه قوْلُه ﴿رِزْقًا حَسَنًا﴾ فناسَبَ أنْ يقول: ﴿وَرَزَقَنِي﴾.

وأمّا في كلام نوح وصالِح عليهما السلام؛ فقد تَقَدَّمهما أمورٌ عامَّة، فناسَبَها قوْل: ﴿وَءَاتَىٰنِي﴾[1].

ب – الاختلاف في جواب الشَّرْط حَذفًا وذِكرًا:

وذلك أنّه في المَوضع الخاصِّ بشُعيب عليه السلام: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾ حُذِفَ جوابُ الشّرْط، ولَم يُحْذف في المَوضعَين الآخَرين. أمّا فيما جاء على لِسان نوح عليه السلام من قوله: ﴿يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [هود: 28] فالجواب هو قوْله: ﴿أَنُلْزِمُكُمُوهَا﴾، أيْ: أنُكْرِهُكُم على قَبولها وأنتم لا تَختارونها.

(1) الأنصاريّ، فتح الرّحمن، ص: 263.

وكذلك فيما جاء على لِسان صالِح ﷺ من قوله: ﴿يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي مِنۡهُ رَحۡمَةٗ فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِنۡ عَصَيۡتُهُۥۖ﴾ [هود: 63]، فالجواب مَذْكور وهو قوله: ﴿فَمَن يَنصُرُنِي﴾، أيْ: أخْبِروني إنْ تَرَكت البَيّنة وتابَعْتُكم، فمَن يَمْنعني من عذاب الله؟

بَلاغَةُ حَذْفِ جَوابِ الشَّرْطِ: ﴿إِن كُنتُ﴾:

في تَوْجيهِ حَذْفِ جَـوابِ الـشَّـرْطِ أكْثَرُ مِن احْتِمالٍ

مِنْهُ أنّه حذَفه لتَقدُّم ما يدلّ عليه في سياق الكلام، وهو ما تقدَّم في قِصَّتَي نوح وصالِح ﷺ. أمّا في قصّة نوح: فهو قوله: ﴿أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتۡ عَلَيۡكُمۡ أَنُلۡزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمۡ لَهَا كَٰرِهُونَ ٢٨﴾ [هود: 28]، الجواب: ﴿أَنُلۡزِمُكُمُوهَا﴾ [هود: 28]، أي: أنُكْرِهكم على قَبولها وأنتم لا تختارونها.

وأمّا في قصّة صالِح: فهو ﴿أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي مِنۡهُ رَحۡمَةٗ فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِنۡ عَصَيۡتُهُۥۖ﴾ [هود: 63]، الجواب: ﴿فَمَن يَنصُرُنِي﴾ [هود: 63]، أي: أخبروني إنْ تَرَكتُ البَيّنة وتابَعْتُكم، فمَن يَمْنَعني من عذاب الله؟

ولمّا كانت الآيتان قَريبَتَي العَهد؛ لكونهما في هذه السورة، صَلَحتا أنْ تكونا قَرينتَين للحَذْف، والمُقدَّر ها هُنا هو قوله: "أيَصحُّ لي أنْ لا آمُرَكم"، وهو اعتذار عمّا أنْكروا عليه من تَغيير المَألوفات[1] ومنه أنّ المَحْذوف يدلّ عليه قوله: ﴿إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي﴾ والتّقدير: ماذا يَسَعُكم في تكذيبي، أو ماذا يُنجيكم من عاقبة تَكذيبي[2] ومنه أنّه حذَفه لتَذهب النّفْس فيه كلَّ مذْهَب[3].

دلالَةُ تَقْديم الجارّ والمَجْرور ﴿مِنْهُ﴾:

التَّقْديمُ لِإفادَةِ الاهْـتِـمـام والاخْتِصاص

يُفيد تقديم الجارّ والمَجرورِ ﴿مِنْهُ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَرَزَقَنِي

(1) الطّيبيّ، حاشية على الكشّاف: 8/170.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/143، وأبو حيّان، البحر المحيط: 6/198.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/358.

مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾ الاهتمام والاختصاصَ. أمّا الاهتمام فهو بالرّازِق سبحانه اعترافًا بفضله، كما في قوله: ﴿رَبِّ ٱبْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي ٱلْجَنَّةِ﴾ [التحريم: 11] فقدّمَتِ الجارَ على الدّارِ أُنْسًا به واهْتمامًا في الجِوارِ ورَغبة به، وأمّا الاختصاص، فإنّه لا رازِق سِواه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾ [الذّاريات: 58]، و(من) هُنا ابتدائيّة على مَعنى: رِزقٌ يَبدأ من عند ربّي.

دلالَةُ الإضْمارِ في: ﴿مِنْهُ﴾ دونَ الإظْهارِ:

لا رازِقَ إلّا الله تَعالى

أوثِر الإضمارُ هُنا على الإظهار في قوله: ﴿مِنْهُ﴾ لِوُضوحه فالرّزْق لا يَكون إلّا من الله، وأيضًا لقُرب العَهد بذِكْره في قوله: ﴿إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾.

سِرُّ التَّعْبيرِ بِالمَصْدَرِ ﴿رِزْقًا﴾:

التَّعْبيرُ بِالمَصْدَرِ لِلتَّأْكيدِ

التّعبير بالمَصْدَر دالٌّ على الحَدَث وهو الرِّزْق مُجرَّدًا عن الزّمان، فالتّعبير به آكَدُ، ويَزيدُه تأكيدًا هُنا أنّه مؤكَّد بفِعْله ﴿وَرَزَقَنِي﴾... ﴿رِزْقًا﴾.

دلالَةُ وصْفِ الرِّزْقِ بِالحَسَنِ:

كُلُّ طَيِّبٍ حَسَنٌ، ولَيْسَ كُلُّ حَسَنٍ طَيِّبًا

أوثِر الوصفُ بالحَسَن على الوصْف بالطّيّب في قوله تعالى: ﴿رِزْقًا حَسَنًا﴾؛ لأنّ الحسن عبارة عن كلّ مُبهج مرغوب فيه[1] فهو أعمُّ من الطّيّب، الّذي يُطلَق اصطلاحًا شرعيًّا على الحلال، كما في قوله تعالى: ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ [النساء: 3] أي ما حلّ لكم من النّساء. وقوله: ﴿وَلَا تَتَبَدَّلُواْ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ﴾ [النساء: 2] أي: لا تتبدَّلوا الحرام بالحلال.

وعلى هذا فالمناسب هُنا الوصْف بالحسن لا الوصف بالطّيّب؛ لأنّ قوم شُعيب ﷺ لَم يكونوا مشغولين بالحلال والحرام، ولكنَّهم

(1) الرّاغب، المفردات: (حسن).

مشغولون بكثرة الرّبح، فإذا كان الرّبح كثيرًا لا يهمّهُم أنْ يكون من حلال أو حرام، ولأنّه ﷻ قد تمتّع بالرّزق الكثير الحلال كما أشرنا إلى ذلك سلفًا، فقد صدَّر لهم الوصْف الّذي يعجبهم مشمولًا فيه وصف الحلال، أيْ أنّ التّعبير بالحسَن أعمّ من التّعبير بالطّيّب، فكلّ طيّب حسن، وليس كلّ حسن طيّبًا.

تَوْجيهُ التّنْكيرِ في: ﴿رِزْقًا﴾:

التّنْكيرُ لِلتّفْخيم والتّعْظيم

دلّ التّنكير في قوله: ﴿رِزْقًا﴾ على تفخيم شأنه وتعظيم حالِه؛ أنْ كان من ربّه واهب النِّعم، وزاد تفخيمه وصْفُه بالحسن.

دلالَةُ الواوِ في: ﴿وَمَآ أُرِيدُ﴾:

سَبيلُ البَيّنَةِ منَ الله تَعالى يُنافي الإثْيانَ بِالمَنْهيّ عَنْهُ

الواو عاطفَة لجملة ﴿وَمَآ أُرِيدُ﴾ وهي جملة لا محلَّ لها من الإعراب، على جملة ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾ الاستئنافيَّة[1] ليُقرِّر أنّ سبيل البيّنة من ربّه ينافي الإتيان بالمنهيّ عنه.

بَلاغَةُ أُسلوبِ النَّفْي:

أداةُ النَّفْي (ما) آكَدُ وأوْسَعُ منْ (ليس)

استَعملت جملةُ النّفْي في قوله: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ﴾ أداةَ النّفي ﴿وَمَآ﴾ وهي آكَد وأوسعُ من (ليس) فيما لو كان التّعبير (ولست أريد) والمراد بالنّفي هنا نفْيُ الحال والاستقبال؛ لأنّه ليس من شأنه ﷻ أنْ يخالِف فيأتي ما ينهى عنه، أو يقصد مخالفتهم ليَنْفرد بما يتولَّون عنه دونهم[2]، لا في الحال ولا في الاستقبال، فهو نبيٌّ لا يتأتّى منه ذلك.

سِرُّ التّعْبيرِ بِالإرادَةِ:

نَفْيُ الإرادَةِ أبْلَغُ منْ نَفْي الفِعْلِ

عبّر بنفْي الإرادة دون نفي الفعل مَثلًا فقال: ﴿وَمَآ أُرِيدُ﴾ بدل (وما أفعل) أو (وما أقصد)؛ لأنّ نفْيَ الإرادة أبلَغ من نفْي الفعل،

(1) الخطيب وآخران، التّفصيل في إعراب التّنزيل: 6/153.
(2) الخفاجيّ، حاشية الشّهاب: 6/315، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/144.

فالإرادة تسبق الفعل، فإذا نفاها كان نفيه للفعل من باب أوْلى. وعلى هذا المعنى من المبالَغة في النّفي ورَد قوله تعالى: ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٨﴾ [آل عمران: 108].

بَلاغَةُ التَّضْمين في فِعْلِ الإرادَةِ:

ضمّن الفعل (أراد) في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُۚ﴾ معنى (قصد)، أو (ابتغى) والمُتعدّي بـ ﴿إِلَىٰ﴾. والمعنى: وما أقصِد ولا أبتغي إلى ما نهيتكم عنه مخالفتَكم إلى البخْس في المكيال، والتَّطفيف في الميزان لأحقِّق لنفْسي نفعًا. والجمع بيْن دلالَتَي فِعلَين (أريد - أقصد، أبْتغي) أقوى من التّعبير بدلالة الفعل الواحد (أريد)[1].

ضـمّـنَ (أُريــد) مَعْنى القَصْدِ والابْتِغاءِ

دلالة التّعبير بالمصْدَر المؤوّل:

اختيار المصْدر المؤوّل بدل الصّريح في قوله: ﴿أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ﴾؛ لأنّ الزّمن هنا مقصود، فهو نفْي لإرادة مخالفتهم إلى ما نَهاهم عنه حالًا واستقبالًا، أيْ بعد صدور نهْيه إيّاهم عمّا نَهاهم عنه. فضلًا عمّا في المصْدر المؤوّل ولا سيّما مع (أنْ) من دلالة على مجرَّد معنى الحدَث دون احتمال زائد عليه، ففي (أنْ) تخليص له من شوائب الإجمال بتحديد هيئات المخالَفة وكيفيّاتها؛ فالنّفي مخصِّص للمخالَفة فحسْب[2].

نَـفْـي إرادة مخالفتهم إلى ما نَهاهم عنه حالًا واستقبالًا

سرّ اختيار فعل ﴿أُخَالِفَكُمۡ﴾:

يُقال: خالفني فلان إلى كذا، إذا قصَده وأنت مولٍّ عنه، وخالفني عنه، إذا ولّى عنه وأنت قاصده. ويلقاك الرَّجل صادرًا عن الماء فتسأله عن صاحبه، فيقول: خالَفني إلى الماء، يُريد أنّه قد ذهب إليه واردًا، وأنا ذاهب عنه صادرًا[3].

إيـثـار الـفـعـل (أخالفكم) على غيره لكَونه أدلَّ على قصْده

(1) محمد عفيف، الشّامل في بلاغة القرآن: 2/61.
(2) السّامرّائيّ، معاني النّحو: 3/149.
(3) المنتجب الهمذانيّ، الكتاب الفريد: 3/512.

وعلى هذا فالسّرّ في اختيار الفعل ﴿أُخَالِفَكُمۡ﴾ دون غيره؛ لأنّ التّعبير به يدلّ على نفْي القصْد إلى فعل ما يُنْهى عنه، مع تولّي الطّرف الآخر عن الفعل، كمَن يخادع النّاس فيَنْهاهم عن فعل شيء لكَونه يُريد الاستئثار بفعله والاستبداد به، فإذا أطاعوه وانْخَدَعوا له قصَد هو إلى الفعل فاستأثَرَ به دونهم. فيَقَع هذا في دائرة قوله تعالى: ﴿أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ﴾ [البقرة: 44].

ومثال ذلك أنْ يحاول تاجرٌ أنْ يصرِف غيرَه من التّجّار عن سِلعة معيّنة؛ لأنّه يريد احتكارَها لنفْسه، فيَعيبها ويذمّها أمامهم وكأنّه الحريص على مصلحتهم، فإذا انصاعوا لكلامه، خلصَتْ له دونهم، فيكون ذلك أبلغ في الذمّ. فإذا نَفَى ﷺ عن نفسه ذلك ظهَر أنّه ما نهاهم عمّا نهاهم عنه إلّا خوفًا عليهم، وهو أوّل المُعْرضين عنه.

بلاغة التّضمين في: ﴿إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ﴾:

تعدّى الفعل ﴿أُخَالِفَكُمۡ﴾ إلى مفعوله وهو المَوصول ﴿مَآ﴾ بحرْف الجرّ ﴿إِلَىٰ﴾ وليس حرْف الجرّ اللّام؛ لأنّه متضمّن معنى القصْد والذّهاب، وكلٌّ من (قصَد) و(ذَهَب) حال التّعدّي يتعدّيان بالحرْف (إلى) الدّالّة على انتهاء الغاية. فقولك: خالفت إلى كذا إذا ذهبت إليه بينما غيرك منصَرِف عنه، وفي التّضمين تجتمع قوّة الفعلَيْن، على معنى: لا أريد أنْ أخالفكم مخالفة أذهب معها إلى أنْ أنهاكم.

الدلالة على انتهاء الغاية مقصود في الكلام

دلالة التّعبير بـ ﴿مَآ﴾:

التّعبير بـ ﴿مَآ﴾ الموصولة في قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ﴾ مقصود به الجمع والاختصار، فما من شكٍّ في أنّها أجمَع وأخصَر بخلاف (الّذي) الّتي تُناسِب التّعيين والتّحديدَ.

التّعبير بـ (ما) أجمعُ وأخصرُ

سرّ اختيار الفعل ﴿أَنۡهَىٰكُمۡ﴾:

اختيرَ الفعل ﴿أَنۡهَىٰكُمۡ﴾ دون غيره؛ لتقدُّم عدد من جُمَل النّهْي، الّتي خاطب بها شعيب ﷺ قومه على جِهة الطّلب فقال ناهيًا: ﴿وَلَا

تَنقُصُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَۖ﴾ وقال: ﴿وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ﴾.

وجه التّعبير بالمضارع ﴿أَنۡهَىٰكُمۡ﴾:

طريق الدّعوة غير ممهَّد ويحتاج إلى صبر وتَكرار وتحمُّل

عبّر بالمضارع ﴿أَنۡهَىٰكُمۡ﴾ دون الماضي (نهيتكم)؛ لأنّه ﷺ كان يواصل نُصْحهم بنشاط متجدِّد دونما فتور أو توقُّف؛ لكَونه رسولًا مُكلَّفًا بدعوتهم والدّعوة لا تعرف اليأس ولا الملل، ولكونه حريصًا على إيمانهم وبُعدهم عمّا نهاهم عنه. والّذي دَعاهُ ﷺ إلى هذا القوْل: "إمّا لأنّه عرف من مَلامح تكذيبهم أنّهم تَوهَّموه ساعيًا إلى التّملُّك عليهم والتّجبُّر، وإمّا لأنّه أراد أنْ يَقلَع من نُفوسهم خواطر الشَّرّ قبْل أنْ تَهجِس فيها"[1].

دلالة الفصْلِ في: ﴿إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ﴾:

شِبْه كمال الاتّصال في الجملة المفصولة

أوثِر الفَصْل في الجملة، للاستئناف البيانيِّ؛ إذ إنّها وقَعت مَوقع الجواب عن سؤال مقدَّر، فكأنّه لمّا قال: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُۚ﴾ قيل: وماذا تريد؟ فقال: ﴿إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ﴾[2].

دلالة أسلوب القصْر:

قصر الصِّفة على الموصوف لتأكيد إخلاصه لهم في النُّصح

قصَر في قوله: ﴿إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ﴾ صِفةً على موصوف؛ أمّا الصِّفة المقصورة، فهي إرادة شعيب ﷺ، وأمّا الموصوف المقصور عليه، فهو الإصلاح[3]، ووقَع القصْر هنا بالاستثناء بعد النّفي الّذي يؤتى به مع المنكِر، وقد أراد بأسلوب القصْر هذا أنْ يبيِّن لهم مؤكِّدًا، أنّه ليس له من مَصلحة خاصّة فيما يقوم به من دعوتهم إلى عبادة اللّه وتوحيده، وإلى عدَم ظُلم النّاس وبخْس حقوقهم، وإنّما الغاية

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/144.
(2) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 10/177.
(3) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 2/120.

هي مصلحتهم هُم، فهو لا يريد لهم إلّا الإصلاح. وقد أفادت صيغة القصْر تأكيد ذلك المعنى؛ لأنّ القصْر كان يُمكِن حصوله بمجرَّد الاقتصار على النَّفي والإثبات نَحو أنْ يقول: ما أريد أنْ أخالفكم أريد الإصلاح[1] وعندئذٍ لا تكون إرادته محصورة في الإصلاح بل قد تتجاوزه إلى غيره فتضمّه إليه.

سرّ إيثار النّفي بـ ﴿إِنْ﴾:

النَّفي بـ (إنْ) آكَد من النَّفي بـ (ما)

أوثرَت ﴿إِنْ﴾ في النَّفي على (ما) في قوله: ﴿إِنْ أُرِيدُ﴾؛ لأنّ النَّفي بها آكَد من النَّفي بـ (ما)[2] فضلًا عمّا في التّعبير بها من التّفنُّن؛ لأنّه سبَقها النَّفي بـ (ما) في قوله: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ﴾.

سرّ التّعبير بالإرادة في: ﴿إِنْ أُرِيدُ﴾:

استئناف بيانيٌّ وبيان للمجمَل

قوله تعالى حكاية عن شعيب عليه السلام: ﴿إِنْ أُرِيدُ﴾، مَردود إلى قوله السّابق: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ﴾ جوابًا عن سؤال مقدَّر أو بيانًا لمجمَلها:

فعَلى الأوَّل – وقد مرَّ بنا – كأنّهم قالوا: إذا لَم تُرِد المخالفة إلى ما تنهانا عنه، فماذا تريد؟ قال: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ﴾. وعلى هذا ففي الجملة (شِبْه كمال اتِّصال).

وعلى الثّاني، فإنّ قوله: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ﴾ مجمَل، وبيانه في قوله: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ﴾ "لأنّ انتِفاء إرادة المخالفة إلى ما نهاهم عنه مجمَل فيما يريد إثباته من أضْداد المَنفيّ فبيَّنه بأنَّ الضِّدَّ المراد إثباته هو الإصلاح في جميع أوقات استطاعته، بتحصيل الإصلاح"[3] وعليه ففي الجملة (كمال اتّصال) لكونها وقعت بيانًا للجملة الأولى[4].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/145.
(2) السّامرّائيّ، على طريق التّفسير البيانيّ: 4/323.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/145.
(4) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 2/120.

علّة اختيار ﴿ٱلْإِصْلَٰحَ﴾:

الإصـلاح يكون عقب الإفساد

اختيرَ ﴿ٱلْإِصْلَٰحَ﴾ دون غيره في قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ﴾؛ لكَونه مقابِلًا للإفساد الّذي أحدَثوه في معاملة الخالق؛ بعدم التّوحيد والعبادة، والإفساد في معاملة الخَلْق؛ بالبَخْس والظّلم. فهما سبيلان متقابِلان، الثّاني منهما يعقب الأوّل في سبيل الأنبياء، أي: الإصلاح يعقب الإفساد، ويُعكَس الأمر في سبيل المفسدين الّذين يُفسدون ما كان صالحًا، ولذا قوبِلا كذلك في قوله تعالى حكاية لقول موسى لهارون ﷺ: ﴿وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾﴾ [الأعراف: 142].

دلالة عدم إضافة الإصلاح إلى ضمير المخاطَبينَ:

الإصـلاح عند الأنبياء عامٌّ لجميع النّاس ولجميع ما يُفسد على النّاس دينهم وتماسكهم الاجتماعيّ

لَم يُضِفِ الإصلاحَ إلى ضمير المخاطَبين بأنْ يقول: (إلا إصلاحكم)؛ لأنّه لو جاء كذلك لكان من باب إضافة المصْدر لمفعوله، فيُفيد أنّهم مخصوصون بهذا الإصلاح ومقصودون بالذّات دون غيرهم، وهذا وإنْ كان مُشعرًا لهم بالاهتمام، لكنَّ فيه تضييقًا وتقييدًا لطلاقة مفهوم الإصلاح عند الأنبياء. وعليه، فمَجيئه هكذا مُطلَقًا عن قيْد الإضافة أدلُّ وأوْفى، على أنْ يدْخلوا فيه دُخولًا أوَّليًّا.

وفضلًا عن هذا فإنّ إيراده مضافًا قد يُذْكي في نفوسهم ما قد وقَع فيها من ريبةٍ، بأنّه كان يتظاهر بالإصلاح، ليُخالفهم إلى ما ينهاهم عنه ويستبدَّ به دونهم، وهو ما نَفاهُ ﷺ فيما مضى، ثمّ عاد ليؤكِّدهُ وليَقْتلع بذور الشّكِّ من نفوسهم، معلِنًا لهم بأنّ طريقه هو الإصلاح، وأنّ دعوته معتمدة عليه، سواء كان لهم أو لغيرهم.

سرّ التّعبير بالاستطاعة في: ﴿مَا ٱسْتَطَعْتُ﴾:

الاستطاعة قيْدٌ للإصلاح

عبَّر بالاستطاعة هنا بوصْفِه قيْدًا لِما أطلقه من إرادة الإصلاح، فقد قيّده بالاستطاعة. وما يستطيعه في هذا هو القَدْرُ الّذي يوفّقه اللّه إليه؛ لقوله بعد ذلك: ﴿وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾. و﴿مَا﴾ في قوله:

﴿مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ﴾ مصدريَّة، نائبة عن ظَرْف الزّمان واقعة مَوْقعه، ويقال لها: ما الظَّرفيَّة[1] أيْ: زمنَ استطاعتي، أو مدّةَ استطاعتي. وهذا كما تقول: آتيك خفوقَ النَّجم، أو صياحَ الدّيك[2] وهذا أظهر ما قيل في ﴿مَا﴾[3]، وفي التّعبير بالاستطاعة إيماءٌ إلى تواضعه ﷺ؛ إذ قيّد الاستطاعة على الإصلاح بتوفيق الله تعالى؛ فالاستطاعة المُطلَقة لله تعالى وليس لمخلوق مهْما علَت منزلته.

بلاغة الاحتراس في: ﴿وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ﴾:

جاء بقوله تعالى: ﴿وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ﴾ بعد الجملة السّابقة عليها ﴿إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ﴾؛ وذلك أنّه لمّا بيّن لهم حقيقة عمله، وأنّه ما يريد إلّا الإصلاح، وكان في بيانه ما يَجرّ الثّناء على نفْسه، أو قد يتوهّم ذلك بعضُ مَن يسمعه يَقوله، أعقبه بما يزيل ذلك التّوهّم، بإرجاع الفضل في ذلك إلى الله فقال: ﴿وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ﴾[4].

دفع توهّم نسبة الفضل إلى غير الله تعالى

سرّ التّعبير بالتّوفيق عن الإصلاح:

ظاهرٌ أنّ السّرّ في تسمية الإصلاح توفيقًا في قوله تعالى: ﴿وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ﴾، راجعٌ إلى كونه السّبب فيه، فلا إصلاح ولا طاعة أصلًا، إلّا بتوفيق من الله. أيْ بإرادته وهَدْيه[5] وكذلك المصلِح فإنّه لا ينشط له إلّا بتوفيق من الله.

التّوفيق سبب لحصول الإصلاح ونشاط المصلِح

نكتة التعبير بالتّوفيق:

السّبب في اختيار التّوفيق تعبيرًا في قوله: ﴿وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ﴾ بدل النّجاح ونحوه؛ لأنّ التّعبير به أتمُّ؛ إذ التّوفيق يعني جعْل الشّيء

التّعبير بالتّوفيق أدلّ وأقوى من التّعبير بالنّجاح

(1) المراديّ، الجنى الداني، ص: 230.
(2) شيخ زاده، حاشية على تفسير البيضاويّ: 4/685، والمنتجب، الكتاب الفريد: 3/512.
(3) الخطيب وآخران، التّفصيل في إعراب التّنزيل: 6/88.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/145.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/145.

وفقًا لآخَر، أيْ طِبقًا له وذلك بخَلْق قُدْرة وفْق الأمر من الطّاعة[1] وليس كذلك النّجاح؛ إذ لا يشترط فيه تمام المطابَقة، بل هو بلوغ المراد وقضاء الحاجة[2] وسيأتي في الفروق اللّغويّة مزيد بيان للفرْق بيْن التّوفيق والنّجاح.

دلالة أسلوب القصْر:

لا يُستمدّ التّوفيق إلّا من الله

القصْر في قوله: ﴿وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ﴾ من باب قصْر صِفة – وهي التّوفيق –، على موصوف هو ﴿بِٱللَّهِۚ﴾[3]، أيْ أنّ الحال أنّه لا يكون توفيق أبدًا إلّا إذا كان بمَدد الله وعَونه وحولِه وقوّته.

دلالة الباء في: ﴿إِلَّا بِٱللَّهِۚ﴾:

لا استعانة إلّا بالله تعالى

الباء هنا هي باء الاستعانة، الّتي تدخل على المستعان به، والمستعان به هنا هو الله تعالى، فلا مُعين على الطّاعة سِواه. وبهذا يظهر لماذا كان التّعبير بالباء دون غيرها.

سرّ إسناد التّوفيق إلى لفظ الجلالة (الله):

في مَقام التهيّب والإجلال يؤثر التّعبير باسم الجلالة

في إسناد التّوفيق إلى لفظ الجلالة دون إسناده إلى اسم الرّبّ، مع كونه نعمة من الله وكان يناسبه الإضافة إليه أيضًا؛ لِما أنّ المَقام مقام تهيّب وإجلال، فكان التّعبير بلفظ الجلالة أوْفى بالمقام وأدلّ على المَرام، وأوْلى لتحقيق غرض تربية المَهابة في قلوب المخاطَبين، وهو ما يحقّقه التّعبير بالاسم الجليل (الله).

دلالة الفصْل في: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾:

كمال الاتّصال في الجملة المفصولة

فُصلت جملة ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ عمّا قبْلها، لِما بينهما من كمال اتّصال؛ لأنّها مؤكّدة لمعنى ما سبَقها[4].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/360، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/145.
(2) الكفويّ، الكلّيّات، ص: 201.
(3) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 2/120.
(4) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 2/120.

دلالة تقديم الجارّ والمجرور ﴿عَلَيْهِ﴾:

إفادة القصر والاختصاص

دلَّ تقديم الجارّ والمجرور ﴿عَلَيْهِ﴾ على قوله ﴿تَوَكَّلْتُ﴾ لإفادة القصْر، والاختصاص، فالمؤمن لا يتوكَّل إلّا على الله، ولا يخصّ غير الله في توكّله. ولأجْل هذا شاع هذا التّقديم في مواضع وُروده في القرآن الكريم، كما في قوله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ﴾ [التوبة: 129] وقوله: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [يوسف: 67] وقوله: ﴿قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ۖ﴾ [الملك: 29].

سرّ اختيار التّوكُّل، والتّعبير به ماضيًا:

التّوكّل اعتماد كامل على الله مع تفويض مُطلَق له سبحانه

في قوله تعالى: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ عبّر البيانُ القرآنيُّ بالتّوكّل دون غيره كالاعتماد مَثلًا مع كونه حقيقة فيه[1]؛ لكون التّوكّل اعتمادًا مع تفويض[2] كامل لله ﷻ، مع الأخذ بالأسباب.

وعبَّر عن التّوكّل بالماضي، للدّلالة على كونه ملازِمًا له من قبْل لَم يفارقه، وأنّه لَم يستَحْدثه الآن - أي وقت الخطاب - بل هو مُداوم عليه.

دلالة الوصْل في: ﴿وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾:

وُصِلت الجملة بسابقتها عَطفًا بالواو؛ لاتِّفاقهما في الخبَريَّة لفظًا ومعنًى مع عدم المانع من العطْف، فبينهما على هذا (توسُّط بيْن الكمالَين)[3].

دلالة تقديم الجارّ والمجرور في: ﴿وَإِلَيْهِ﴾:

لا تكون الإنابةُ إلّا لله

دلّ تقديم الجارّ والمجرور ﴿وَإِلَيْهِ﴾ على قوله ﴿أُنِيبُ﴾ على ما دلّ عليه تقديمه في قوله: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ وهو إفادة القصْر. فكَما أنّ التّوكُّل لا يكون إلّا على الله، فهكذا الإنابة، فإنّها لا تكون إلّا إليه.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 4/151.
(2) الكفويّ، الكلّيّات، ص: 303.
(3) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 2/120.

وجه إيثار لفظ (الإنابة):

الإنابة تعني الرّجوع بالنّدم والتّوبة وليس مُطلَق الرّجوع

واختيرَ التّعبير بلفظ الإنابة دون الرّجوع في قوله تعالى: ﴿وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾؛ لأنّ المقصود هو العودة إلى الله تعالى بالتّوبة والنّدم على المعاصي، وهو معنى الإنابة. قال ذلك ﷺ ترغيبًا لهم في التّوبة والنّدم على ما هم فيه، ولا يدلّ لفظ الرّجوع على نفْس المعنى؛ لأنّ معناه المصير إلى الموضع الّذي قد كانَ فيهِ قبل[1]، ولا يعني الرّجوع بالتّوبة والنّدم، بل قد يعني الرّجوع إلى المعصية، وسيأتي في الفروق المعجميّة بيان الفرْق بيْن لفظَي الإنابة والرّجوع.

ثمّ إنّ في هذا التّركيب ﴿وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ بُعدًا آخَر، وهو أنّه ﷺ ينزِّل نفْسه منزلة المذنب الّذي يحتاج دوْمًا إلى التّوبة والإنابة، وفيه إغراء لهم على الرّجوع إلى الله مُنيبين إليه.

نكتة التّعبير بالمضارِع ﴿أُنِيبُ﴾:

استخدام المضارع لإفادة التّجدُّد والاستمرار

دلّ التّعبير بالمضارع دون الماضي في قوله تعالى: ﴿وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ على دوام إنابَته ﷺ لربّه، واستمراره عليها، وتجدّد إعلانها وإظهارها بالتّعبير في كلّ مَوقف يستدْعيها.

بلاغة عطْف المضارع على الماضي:

الإنابة مستمرّة متجدّدة

عطف المضارع على الماضي في قوله تعالى: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ للدّلالة على استمراريّة الإنابة منه؛ لأنّ صيغة المضارع تفيد التّجدُّد والاستمرار، واستعمال الماضي ﴿تَوَكَّلْتُ﴾ للدّلالة على الوقوع والتّحقّق، ويساعد في الدّلالة على الاستقبال ما في مادّة الفعل من الثّبوت المستمرّ على الصِّفة الّتي يفيدها الحدَث[2].

أثر التّعبير بصيغ الإفراد:

من منهج الأنبياء في الدّعوة التّواضع مع الله

أوثر التّعبير بصيغة الإفراد فيما ورَد في دعوة شعيب ﷺ في كلٍّ

(1) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 303.
(2) محمد عفيف، الشّامل في بلاغة القرآن: 2/61.

من: ﴿أُرِيدُ﴾ و﴿ٱسْتَطَعْتُ﴾ و﴿تَوَكَّلْتُ﴾ و﴿أُنِيبُ﴾ إظهارًا لِلتّواضع لله أوّلًا، ثمّ لهم حتّى يدّرأ به توهّم التّعاظم عليهم في خطابه لهم.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الرُّؤيةُ والعلمُ:

العلم أوسع مدًى من الرّؤية لأنّها لا تكون إلّا للموجود وهو يكون للموجود وغيره

تستعمل الرؤية في معنى العلم كثيرًا في القرآن الكريم وفي غيره، ويُطلَق عليها الرّؤية العِلْميّة في مقابِل الرّؤية البَصَريّة الّتي يكون معتمَدُها البَصَر؛ بأنْ يرى الشيء بالعين، ومن حيْث الأصلُ، فإنّه يفرَّق بينهما بأنّ الرُّؤْيَة لا تكون إلّا لِلْمَوْجود، فالعيْن لا ترى إلّا موجودًا أمامها، وأمّا العِلْم فهو أوسع مدًى؛ لأنّه يتَناول المَوْجود والمعدوم.

وفي اللُّغة والاستعمال القرآنيّ تأتي الرّؤية على ثلاثَة أوْجُه:

أحدها: العِلم: وهو حاصل بوفرة في خطابات القرآن الموجَّهة للرّسول ﷺ المستفْهَم عنها بالرّؤية في أمور لَم يشاهِدْها لِبُعدها الزّمنيّ عن عصْره، كقَوْله تَعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ﴾ [البقرة: 258] وقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦﴾ [الفجر: 6] وقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ۝١﴾ [الفيل: 1]. وهو المقصود في الآية.

وثانيها: أنْ تأتي بمعنى الظَّنِّ، كالّتي في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ۝٦﴾ [المعارج: 6] أي يظنّونه. وقوله: ﴿يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ﴾ [آل عمران: 13] أي: يظنّونهم بحسب مقتضى مشاهدة العيْن مثلَيْهم.

وثالثها: الرّؤية بالبصَر، وهو المعنى الأصل في استعمال التّعبير بلفظ الرّؤية.

والوجهان الأوّل والثّاني من باب المَجاز، والثّالث من باب الحقيقة[1].

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 94، والرّاغب، المفردات: (رأى).

البيّنةُ والآيةُ:

أكثر موارد الآية في القرآن مراد فيه المعجِزة، وأكثر موارد البيّنة مراد فيه الحُجّة

يستعمل القرآن الكريم كلًّا من (البيّنة) و(الآية) للدّلالة على المعجزة الّتي أيّد الله ﷻ بها أنبياءه، لتكون دليل صدقهم، وتطلَق (البيّنة) ويراد بها الحُجّة والبرهان العقليُّ، وأمّا عن المعنى الدّلاليّ والاستعماليّ لكلٍّ منهما، فالبيّنة هي الدّلالة الواضحة عقليَّة كانت أو محسوسَة. قال تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [هود: 17] وقال: ﴿جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ [الأعراف: 101]. ومن هنا اصطُفيَت في سياق الآية لتُعبّر عن الدّلالة الواضحة الظّاهرة، الّتي لا تحتاج لشدَّة وضوحها إلى إجالة نظَرٍ.

و(الآية) لها في اللُّغة وفي استعمال القرآن معانٍ مفصَّلة في كُتب اللُّغة والمفردات[1] منها: العلامة والدّليل والعِبرة، وهذا كلُّه ملحوظ في لفظ الآية حالَ دلالتها على المعجزة الّتي يؤيّد الله تعالى بها رسُلَه، وتكون حُجّتهم أمام المدّعوّينَ. ومن استعمال القرآن الكريم لها في معنى المعجزة قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦٓ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٥٠﴾ [العنكبوت: 50].

وقد بيّن ابن عاشور مسلك القرآن الكريم في استعمال المفرَدَتين (الآية والبيّنة) بقوله: "إنّ أكثر موارد الآية في القرآن مراد فيه المعجزة، وأكثر موارد البيّنة مراد فيه الحُجّة، فالمراد بالبيّنة في قول موسى عليه السلام: ﴿قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [الأعراف: 105] الحُجّة على إثبات الإلهيَّة وعلى حَقّيَّة ما جاء به من إرشاد لقومه، فكان فرعون غير مقتنع ببُرهان العقل أو قاصرًا عن النَّظر فيه فانتقل إلى طلبِ خارق العادة[2] أي آية أو معجزة.

(1) الرّاغب، المفردات: (أي).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/40.

التّوفيقُ والنّجاحُ:

التّوفيق يكون بجعْل الشّيء وفْقًا لآخر، أيّ طِبقًا له وذلك بخلْق قُدرة وفْق الأمْر من الطّاعة[1] وليس كذلك النّجاح؛ إذ لا يشترط فيه تمام المُطابَقة، بل هو بلوغ المراد وقضاء الحاجة[2].

التّوفيق يكون في بلوغ ما هو حسن فهو أخصُّ والنّجاح أعمُّ

وبلوغ المراد وتحقيق المطلوب في النّجاح قد لا يكون حسنًا في ذاته. أمّا التّوفيق، فلا يكون إلّا لما حسُن من الأفعال. يُقال: وفّق فلان للإنصاف. ولا يقال: وفّق للظُّلم[3].

وعلى هذا فالنّجاح أعمُّ من التّوفيق، فكلُّ توفيق نجاح وليس كلُّ نجاح توفيقا، وفي هذا تعليل لاختيار لفظ ﴿تَوۡفِيقِيٓ﴾ على لسان شعيب ﷺ دون غيره؛ إذ لا يناسِب النَّبيَّ إلّا ما حسُن من الأفعال.

الإنابةُ والرُّجوعُ:

يشترك كلٌّ من الإنابة والرّجوع في معنى العودة، لكن يُفرّق بينهما بأنّ الإنابة تعني الرّجوع إلى الله تعالى بالتّوبة بَعد معصية أو مقارفة ذنب، فاللّفظ خاصٌّ بالرُّجوع إلى الطّاعة، حيْث لا يُقال لِمَن رَجَع إلى مَعْصية: إنّه أناب[4] أمّا الرّجوع، فهو المصير إلى المَوضع الَّذي قد كان فيه قبْلُ[5] فلا يفيد خصوصيّة المعنى الذي أفاده لفظ الإنابة.

كلّ إنابة رجوع وليس كلّ رجوع إنابة

وعلى هذا يكون بينهما عموم وخصوص مُطلَق، فكلُّ إنابة رجوع وليس كلُّ رجوع إنابةً.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/360، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/145.
(2) الكفويّ، الكلّيّات، ص: 201.
(3) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 218.
(4) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 303.
(5) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 303.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الحادي والعشرون، سورة هود من الآية 41 إلى الآية 114
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الحادي والعشرون، سورة هود من الآية 41 إلى الآية 114 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 21 ، 808 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك :978-9948-768-18-0
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 21 : المجلد الحادي والعشرون، سورة هود من الآية 41 إلى الآية 114.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي :978-9948-768-18-0
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-9725944 بتاريخ 2024/02/06م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»